الشبح والزيف

قصة بقلم عبد الأمير الأعسم

التقى بها ، مرة او مرتين ، وقد دبت في خصلات شعرها الاسود العميق ريح هادئة ، وامحت علامات الصبا والشباب من كل قطعة من وجهها ، الا العينين العسليتين الهادئتين ، كان يجدهما كما كانتا عميقتين ، تفوحان بعطر ربيعي رغم الخريف ..

انه احيانا يتذكر ملامحها في لارتابة .. وقد يفيض في اعماقه شيء خبيث ليرسم له بطأها وحذرها ، كأنها كانت تخاف شيئا يبتلعها ان هي سارت في عجالة .. كان يجدها مشدودة الى الارض ، الى حذائها اللامع الارجواني ، ذي الطقطقة المحزنة – شيء عميق في صدره يدفعه للشعور بأنها تحمل على صدرها غير الثديين اللذين لا تزال الحياة تدب فيهما بعنف وقوة وضلال .. كان يرسم كارثة ، لا يدري شكلها ، وقد أثقلت هذا الصدر ، ومن تحته الضلوع والقلب .. فقط تلك الليونة الدافئة في لحمها المختفي تحت تنورة زرقاء او خضراء – لا يذكر – وبلوزة مزركشة بخطوط ذهبية ، بأرضية رمادية فاقعة، ومشد في الوسط لا يذكر لونه لكنه يستطيع ان يتلذذ طوال عمره بذكريات لمعانه اللازوردي كأنه يتأمل شفق صحراء تضيق في وسط الافق البعيد.

وهو عندما رآها ، أحس الدبق يزحف الى بطن حلقه ، وصار لسانه العابث يتلكأ بين اسنانه ومستقره ، ولم يفهم اكثر من لزوجة افكار شتى صارت تتماوج في عبث فضولي ، فتلتصق على صفاح ذهنه غير واضحة .. انه يعرفها .. انها نعيمة .. يا للروعة ؟.. هل تكون هذه نعيمة بعد غياب عشر سنوات ؟؟ أين كانت ؟؟ لم يسأل نفسه سؤالا آخر .. فقط اهتدى الى خيوط العنكبوت المتربة ، وصار يسحب بلزوجة افكاره واحدا تلو الاخر ، حتى صار يذكرها جيدا .. وثمة خاطرة رعناء وثبت امامه ، وجرس التلفون يدق فوق مكتبه ، ان نعيمة لا بد من لقائها .. انها زميلة العمر ، يوم كان يلتقي بها على البساط الاخضر يداعب ضفيرتها القصيرة في عبث طفولي ، وهي تقص عليه نوادر جحا التي قضت مساءها الاسبق في قراءتها !..

ورفع سماعة التلفون :

– نعم ...

– من فضلك الاستاذ شاكر موجود ؟؟

– نعم .. هو المتكلم .. الدكتور شاكر ..

واحس ان قلبه ينقبض ، وحلقه يجف ، وطرقات عنيفة في عروقه، والتهبت اذناه ، وكاد الدبق يغطي لسانه .. سمع الصوت الانثوي :

– لا .. آسفة .. هل الاستاذ شاكر المحامي حضرتك ؟؟

وكأنه انفجر :

– لست محاميا .. أنا طبيب .. طبيب أسنان ..

وتردد الصوت الاخر متألما :

– أوف .. ايضا غيره !..

هتف الدكتور :

– من المتكلم ؟

وسمع طرطقة اغلاق الخط ، فأغمض عينيه ليتذكر نعيمة .. انهذه السائلة في التلفون تكرر محاولتها يوميا اكثر من عشرين مرة ، عابثة في هدوء بكل اعصابه .. من ايام .. تماما منذ أن رأى نعيمة .. وكأن خواطره صارت تعبث به في ازعاج ، أحسه انقباضا وكآبة وحزنا .. هل تكون هذه السائلة نعيمة ؟؟ من يدري .. من يدري ..

عجب لتفاقم الاحزان عليه – مفاجأة – فرفع يديه الى اعلى، ثم أسند مرفقيه الى المكتب ، ودفن رأسه في كفيه .. منذ كانت نعيمة بعد صفيرة كانت تخجل منه ، وكانت تخفض عينيها كلما نظر الى العسل في أعماقهما .. وقد تهرب .. وتختفي .. كما يهرب ويختفي طائر الشتاء الابيض لاول نداء للصيف ..!

لقد رآها قبل ايام ، بينما كان عائدا الى منزله ، تدخل منزلا قريبا من الشارع الذي يقطنه ، هو لا يشبه منزله ، فهو من طراز عتيق ، وقد كسي وجهه بالسمنت ، واستغنى صاحبه بذلك عن تلوينه بتلاوين المنازل الحديثة . كان المنزل حزينا .. وانه يتقيأ شيئا خبيثا اخر هو الغموض .. والغموض والحزن عاملان اصليان للشعور بالتفاهة والدمار والكارثة !.. ولمحته نعيمة ينظرها .. لم تبد حركة .. بعد عشر سنوات، ومن خلال الشقاء الساذج ، يراها .. اختفت خلف اسياخ تراكم عليها الصدأ بشكل مثير ، ثم رمقته بنظرة أخيرة ، واختفت في الباب الخشبي – الصاجي – الاسود . وكاد قلبه ينخلع ، بل وضع يديه على صدره كأنه يحافظ على قلبه من المفاجأة ..

وتذكر ...

– نعيمة .. نعيمة .. هل تذكرين المعلمة وقت اعطتنا درس التاريخ وهي تلوك في فمها شيئا يتمطط وفكاها يتداحان بشكل العجين ؟..

– نعم اذكرها يا شاكر .. والست جميلة .. هل نسيتها ؟ لقد كانت ذات وجه يشبه نصف بطيخة ، وارداف من فلين..

– لقد رميتها بطبشورة ..

– وضحكنا نحن ..

– ماذا تحبين يا نعيمة ؟؟

– أحب أن نكون معا دائما .. أن نعود معا الى مدرسة واحدة..

– هذا لا يحدث الا في الكلية ..

– سأدرس الهندسة .. وأنت ؟؟

– مهندسة ؟؟

– نعم .. ان شيئا جديدا يختلج في اعماقي .. وأنت ؟؟

– محامي الشعب .. المحامي وحده الذي يتحسس بآلام الشعب..

– كلا .. ارجوك .. ادرس الهندسة ..

– سادرس الهندسة معك ، والحقوق مساء ..

– مهندس ومحامي الشعب في وقت واحد ؟

– لتفخري بي ، على الاقل ..

ولم يرها بعد ذلك . لقد تزوجت نعيمة رجلا في مدينة بعيدة عن مدينته الجميلة . وظل وقت ذاك يفكر فيها ، في حياتها ، في زوجها في مسؤولياتها الجديدة .. ومر عام ، وانهى البكالوريا ، ثم حان وقت التقديم للجامعة .. ثمة أمر محير كاد يمزق اعصابه . هل يدرس الحقوق ؟؟ كلا .. لا يمكن .. لقد رغب في دراسة الحقوق من اجل نعيمة .. والهندسة ؟؟ أيضا هي من اجل نعيمة .. اذن سيدخل الطب .. وفكر كثيرا .. وكان يقف مع جماعة من الطلاب والطالبات في ردهة كلية طب الاسنان ، ليقرأ اسمه في مقدمة المقبولين ..

ومرت السنوات .. بسرعة هادرة ، هينة الجدوى ، ممزقة للروح ، مليئة بالكآبة .. لقد تعرف على فتيات كثيرات ، وكسب احترامهن، وكن يتقربن اليه لالمعيته في الدرس والتطبيق ، لكنه ظل عند حده الذي

رسمه لنفسه يوم اختفت نعيمة ...

وجاء اليوم الذي جلس في مكتبه لاول مرة من اربعة اعوام، عند بابه الخارجي مقعد جلس عليه خادم هرم يدخل مرضاه ، ولم يعديذكر نعيمة ، ولا الهندسة ، ولا الحقوق .. لقد نسي حتى نفسه في خضم الحياة المعربدة من خمرة التقدم الرهيب .. السيارات الكبيرة تهدر في الشارع الكبير ، اصوات الباعة ، المهرجين ، الاقدام ، العربات ، والصخب المدمر .. المرضى .. الاسنان المتآكلة الكثيرة ...

وبدأ يتسع بذهنه . فقد دخل الكلية وتخرج طبيبا ، وهو لم يملك المعرفة التي يلتزم بها .. وصار يلتزم بعد جملة تجارب . لقد التزم، فقط ، بحلمه الدائم بنعيمة غير ذلك لم يلتزم .. ظل حرا بلا هدف.. والحرية بلا هدف عبث جمالي لا يعني اكثر من محاولة سقيمة للحياة غير المجدية ..!

ولم يعد يسمع شيئا عن نعيمة . فقد توفيت أمه ، وتزوجتأخته، وكبر أخوه الصغير وسافر الى اوروبا . بقي وحيدا في دنياه . لم يبرح عنه الشعور بالحزن كلما تصفح «البوم» الصور ، فكانيسأم الصورةالتي تجمعه برفيقة الطفولة والشباب .. نعيمة .. لقد كانت نعيمة صديقة أخته ، وأنيسة أمه، وكان أبوها الرجل الشرس المتقاعد يؤمن بزواجبناته في سن السادسة عشرة . وكانت هي اخر من تبقى في الباقة من ورد .. فاقتطفها وأهداها للرجل الغريب في المدينة البعيدة !..

وكره أن يبقى فيالحي القديم الذي كانيجمعه بنعيمة..فاستأجر منزله الحالي يوم سافر أخوه وبقي وحيدا . ونعيمة ، طوال المدة التي تزوجت فيها ، وهو لا يزال في الحي القديم لم تزر بغداد .. لقد نفاها أبوها في مكان بعيدا .. بعيد جدا ..

وكاد ينفجر .. فاندفع الىالمشجب ليرتدي الجاكيت ، ثم خرج من غرفته وهو يتمتم :

ـ اغلق العيادة ، يا غضبان ...

وكانت قدماه تتحركان بسرعة ، وهو يهبط السلم ، حتى اذا صار يشق طريقه بين زحام المارة في الشارع الكبير ، مد يديه ليسوي عقدة ربطته ، ثم مسح أنفه ، وتحسس شاربه النحيف ، وتاه فكره . وكان الحر الشديد يحرق روحه ، وقد تدبقت يداه بشكل ملحوظ ، فمسح الواحدة بالاخرى ، وما برح يمشي حتى شده الى العالم الضائعنور ينسكب في شكل مخروطي يتبعثر على بائعي المجلات والصحف . وتذكر نعيمة .. فتاة جميلة تجلس بجانب أمه العجوز واخته ، وكان هو يحادثها في أمور لا تفهمها لا أمه ولا أخته .

وطالعته دار سينما .. ورأى الزحام عند بابها يكاد يهصر الحديد والرخام والارض .. ومر بعيدا ، ثم لفف نفسا طويلا ، ودخن ... وصور مختلفة تترامى ، الرتابة ، البؤس ، الكآبة ، الجنون .. لقد وصلتهأمس رسالة من أخيه «فياض» يخبره برأيه الجديد في تبديل منهجهالدراسي من الهندسة الى الفلسفة ..؟ لم يندهش . لقد فهم من زمن أن الجيل الجديد لا يستسيغ الا الفلسفة لانها بؤرة تلتقي فيها كل العالمواالاشكال والالوان والصور . وتمنى نفسه دارسا للفلسفة المنهجية في جامعة ... انه الان يعاني الارهاق من روائح البنج والكافور والرصاص والمعقمات . وتكاد نفسيته تتعقد ، للاسنان المتآكلة التي يخلعها من فك المريض ..

وانحسر الدرب العريض أمامه ، منتهيا الى الساحة الكبيرة حيث يضيع الفرد ، ثم عبرها فمر بالجالسين على المصاطب المتناثرة وهو يمعن النظر كأنه يبحث بين الجالسين على المصاطب المتناثرة ، عن فرد ما يعرفه .. ولو كان أمه او أخاه او أخته أو حتى نعيمة ...

لم يلبث أن غرق في سيارة تاكسي ، وعبرت الساحة بصخب ، وكان بعد دقائق في «الامباسي» . دخل الرواق ، ثم عكف للتواليت ـ كأنه يهرب من صخب الموسيقى المنبعثة من الداخل ـ بعدها سار ، وهو يدخن ، ثم دفع الباب الخارجي الزجاجي ، وأطل على المشى الاخضر وهناك جلس يتناول عشاءه بمفرده .. ثمة همهمة بينالجالسين .. نادى الخادم وأعطاه الحساب ، فقال الرجل له :

ـ ألا تبقى يا دكتور ؟؟

ـ لا .. عندي شغل ..

ـ عندنا اليوم نجمة جديدة ..

ـ عربية ؟؟؟

ـ لا .. ايطالية .. اسمها «روزيتا» ..

ـ روزيتا ؟.. في أية وصلة تغني ؟؟

ـ هي ليست مغنية ..

ـ راقصة ؟؟ امْ .. حسنا .. الثمن ؟؟

ـ عشرون دينارا ...

ـ ثمن باهظ ..

ـ وزجاجة شمبانيا كتقدير .. كتقدير .. تقدم لها على المسرح .. أثناء رقصتها .. كتقدير .. كتقدير .. فقط .

ـ لها ، أم للفن ؟

ـ ابتسم الرجل :

ـ لا علم لي بغـ ...

وكان الرجل قد لدغ بثعبان فهتف :

ـ ها هي ذي .. أنظر .. يا سيدي ..

ـ أين ..؟

ـ هناك جنب البار ...

والتفت الدكتور شاكر الى المحل المخصص للبار .. نظر طويلا كأنه لم يهتد ، قال الرجل بعد انتظار :

ـ تلك .. صاحبة الفستان الرمادي ..

ـ الضيق ...؟؟

ـ أجل ...

ـ آ .. آ ..

وحانت التفاتة من صاحبة الفستان الرمادي ، فشهق شاكر، وأحس الاغماء يسري الى أعصابه في دبيب كالافعى ، انها نفس المرأة التيالتقى بها مرة أو مرتين أمام باب المنزل الكئيب قريبا من شارعه .. انها نعيمة .. نعيمة .. التي يتصورها بعد غيبة عشر سنوات .. يا للهول ..؟؟

وسأله الرجل :

ـ هل أعجبت سيدي الدكتور ..؟

ـ كلا ...

ـ عجبا .. انها سحر الشرق والغرب .. انها سحر ـ

وتمتم الدكتور شاكر :

ـ لعنة الله على الشرق والغرب .. وكل النساء ..

وقام ليهرب من السحر والمفاجأة والجنون .. وذهل لانها تقدمت اليه .. قالت بانكليزية رائعة :

ـ مساء الخير يا سيدي ..

ـ مساء الخير ..

ـ هل تسمح ؟؟

ـ تفضلي ..

نظر الرجل للطبيب .. ليقول الاخير كلمته :

ـ زجاجة شمبانيا ..

ومر الوقت .. تحدث كثيرا ، وحدثته أكثر .. لم يفهم منها شيئا .. فقط أفرغ زجاجة الشمبانيا في جوفه ، وغرق في الدخان ، وماج فكره في ارهاق ، وتحللت عقدة ربطته ، وأحس الضعف .. وكان يبتسم للصورة الحية لنعيمة في شخص الايطالية .. وكم كانت دهشته جميلة أن يذكرها بأنه جارها .. تذكرت .. وضحكت .. وابتسم .. اننعيمة لا تزال منفية .. تلك المرأة هي هذه .. أما نعيمة فلا وجود لها فيحياته .. اطلاقا .. اطلاقا لا يجدها .. ولن .. ولن يجدها . الى الابد ..

وكان مع الفنانة الايطالية يدخل بيته بعد الثالثة صباحا ، ويلازمه شبح ضئيل واهن لنعيمة ..

الناصرية ـ العراق

عبد الامير الاعسم